مفاجئة بشارة الأولاد في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية)

Surprising evangelization of children in the Holy Qur'an (a stylistic study)

ط. د إسحاق صادقي
د. سيد حيدر فرع شيرازي، د. رسول بلاوي،
د. حسين مهتدي، د. ناصر زارع

(قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة خليج فارس، بوشهر - إيران)
shirazi@pgu.ac.ir

تاريخ الإيداع: 2022/01/09 تاريخ القبول: 2022/02/12 تاريخ النشر: 2022/03/15

الملخص

هناك في القرآن الكريم حوارات بين الأنبياء (عليهم السلام) والملائكة حيث يبشرون الأنبياء (عليهم السلام) بأن يكون لهم ولد على خلاف المعتاد في الطبيعة بأن يكون الولد من امرأة عاقر أو في سن الكهولة أو يكون الولد بلا أب، فهذا الخلاف في العادة يؤدي إلى مفاجئتهم حين يسمعون خبر هذه البشارة في بداية الأمر لكنهم حين يفهمون بأن الأمر أمر إلهي يؤمنون به وتطمئن إليه قلوبهم. ففي كل لحظة تحدث واقعة على خلاف الانتظار والتوقع يواجه الإنسان بالمفاجئة وإثر هذه المفاجئة يأتي بالحركات والأقاويل التي يمكن تحليلها وإحصاءها في النص والكلام. قمنا في هذا المقال بتحليل الحوارات التي دارت بين الأنبياء (عليهم السلام) والملائكة بشأن بشارة الولد في قصة إبراهيم وزكريا ومريم (عليهم السلام) ومفاجئتهم وحللناها أسلوبياً لنرى خصائص هذه الحوارات ووجوه تشابهها وافتراقها من حيث استخدام الكلمات والجمل التي قد تتغير من حوار إلى الآخر لنبين المعنى الذي يدركه القارئ من هذه التغييرات في مبنى الأصوات والكلمات والجمل على المنهج الوصفي- التحليلي مستعينين بالمنهج الإحصائي. وصل البحث إلى أنّ الأنبياء (عليهم السلام) حين يبشرهم الملائكة يدهشون بالخبر الذي ليست أسبابه الطبيعية متوافرة فيفاجئون في البداية ويسألون عن كيفية وقوع الخبر حسبما تخيلاتهم وتفكراتهم الإنسانية التي ترى العالم نظاماً يسير على مدار العلة والمعلول، لكنهم تختلف مواجهتم بهذه المفاجئة حيث يستخدمون في سياقات متشابهة

أساليب مختلفة لكلامهم مثل استخدام (أ)، و(ما)، و(أنّى) الاستفهامية أو اختلاف حروف الهمس والجهر في كلامهم نتيجة شدة مفاجئتهم أو ضعفها. وبما أنهم يعتقدون بقدرة ربهم وإرادته التي تفوق العالم يخضعون أمام أمر ربّهم، ومع أنّهم لا يرون أنفسهم مستعدة على إنتاج الولد بشكل اعتيادي، لكنهم بسبب إيمانهم بحصول أمر الله تبارك وتعالى يؤمنون بكلام الملائكة سمعاً وطاعةً.

الكلمات الرئيسية: القرآن الكريم، الأسلوبية، المفاجئة، البشارة، الأولاد.

Abstract:

There are in the Holy Qur'an dialogues between the prophets and the angels where they give good news to the prophets that they will have a child, unlike the usual nature, that the child will be from a barren woman or be of middle age or the child will be without a father. This disagreement usually leads to their surprise when they hear the news of this good news at the beginning But when they understand that it is a divine command, they believe in it and their hearts are reassured about it. In every moment an incident occurs that is contrary to waiting and expectation, a person is faced with a surprise, and the effect of this surprise comes with movements and sayings that can be analyzed and counted in text and speech. In this article, we have analyzed the dialogues that took place between the prophets and angels regarding the good news of the boy in the story of Abraham, Zakaria and Maryam, peace be upon them, and their surprise and stylistically analyzed to see the characteristics of these dialogues and their similarities and differences in terms of the use of words and sentences that may change from one dialogue to another to show the meaning that the reader perceives from these Changes in the structure of sounds, words and sentences on the descriptive-analytical approach, using the statistical method. The research reached that when the prophets announce to them the angels are surprised by the news whose natural causes are not available, so they are surprised at the beginning and ask about how the news happened according to their human imaginations and thoughts that see the world as a system that runs on the course of the cause and effect, but they differ in their confrontation with this suddenness as they use in similar contexts different methods of their words Such as the use of the interrogative "a and ma and anna" or the difference in the letters of whispering and loudness in their speech as a result of the intensity or

weakness of their surprise. And since they believe in the power and will of their Lord that transcends the world, they submit before the command of their Lord, and although they do not see themselves ready to produce a child in an ordinary way, but because of their belief in the occurrence of the command of God, the Blessed and Exalted, they believe in the words of the angels, listening and obediently.

Keywords: the Holy Qur'an, stylistics, surprise, evangelization, children.

1. المقدمة:

هناك في القرآن الكريم العديد من الأساليب استخدمت لبيان الخطاب، وفي كلّ موضع يتناسق أسلوب الحوار والخطاب مع أغراض الكلام والبيان تناسقاً تاماً. أحد هذه الأساليب هو أسلوب الحوار بين الملائكة والرسل حين يبشرونهم بولادة طفل لهم وهم في نهاية كبرهم وعمرهم. هذا الأسلوب يتكرّر في القرآن الكريم في مواضع شتّى ضمن السور المختلفة، حيث يبشّر الملائكة الأنبياء (عليهم السلام) بأن الله تبارك وتعالى لبّى دعوتهم فيكون لهم الولد الذي طلبوه من الله، فهذه البشارة قد جعلت الأنبياء (عليهم السلام) في موضع التعجب والدهشة، لأن الأسباب الطبيعية لخلق الولد لكونهم شيوخاً كبائرلم تكن متوافرة عندهم.

إنّ الله (عز وجل) قد جعل لكلّ موجود في العالم طريقاً خاصاً لإنشائه ولا فرق في هذه المسألة بين النباتات والموجودات الأخرى حيث كل منها لها أسلوبها المعين في خلقها وتكوينها ونموها حتى ينقضي عمرها ويموت أو يفنى. فالنباتات تنمو بشكلها المعتاد عليه تستفيد من الماء والتراب والهواء وغيرها من العوامل اللازمة لنموها حتى تصل إلى غايتها وحينئذ تموت وتضمحل أركانها على أشكالها الطبيعية والمعتادة في العالم. والحيوانات الأخرى مما يعيش في البر أو البحر على أشكالها المختلفة لكل منها أسلوبها الخاص في خلقها وإنشاءها ونموها حتى نهاية حياتها، وهذا الأسلوب معروف لدى الناس حيث نرى مثلاً كيف يخلق كل من أنواع الحيوان والطيور إثر مجامعة ذكورها وإناثها وهذا أمر طبيعي ومعتاد في العالم. وإذا كان في خلق شيء من هذه الحيوانات والنباتات طريقاً غير الطريق المعروف والمعتاد عليه فهناك تنتبه إليه الأذهان تندهش منه النفوس ويؤدي إلى المفاجئة والتعجب.

فإنّ أمر الحياة كما نراها ونفهمها ذو أسلوب وطريق اعتياديّ، لكل حركة في الطبيعة أسبابها وعللها وإن لكل معلول في الطبيعة علته الخاصة له عرفناها نحن أم لم نعرفه، فإذا حدث شيء أو عمل على خلاف المعتاد عليه فهنالك تنتبه إليه الأذهان والأنفاس ونرى هذا الأمر حتى في قصص الأنبياء (عليهم السلام) والرسل في القرآن الكريم، فإذا أخبرهم الله تبارك وتعالى ببعض الأمور على سبيل الإعجاز فهم وإن لم يكن لهم شك أو ريبة في حدوث أمر الله (عز وجل) يفاجئون بهذه الأخبار والحوادث لأنهم كبقية البشر أيضاً كانوا يعيشون في هذا العالم وتشكلت أذهانهم وتربت أنفاسهم كغيرهم من البشر معتقدين بأنّ لكلّ فعل وحدث في العالم أسبابها وعللها المادية وإن كانوا مؤمنين بقدرة الله (عز وجل) وإرادته على أن يأتي ويخلق على خلاف ما هي معتاد عليها في العالم.

إنّ طرق المفاجئات وبيان هذه المفاجئات في القرآن الكريم كثيرة، حيث نرى أنه استعمل القرآن الكريم ألفاظاً للدلالة على معنى المفاجئة كما استفاد من ألفاظ (بغتة) و(إذا) وغيرهما لأن هذه الألفاظ تبين معنى المفاجئة في الجملة للمخاطب، وأحياناً لم يستفد القرآن الكريم في بيان المفاجئة من هذه الألفاظ وجاء بأساليب أخرى نفهمها من سياق الآيات والجملات كالاستفهام التعجبي أو أحياناً نفهم المفاجئة من الأعمال والحركات التي تصدر وتنبعث عن الأشخاص والأفراد الذين يواجهون بالمفاجئة.

الاستفهام أحد هذه الأساليب، لأنّ الإنسان حين يفاجئ بما هي على خلاف توقعه في حياته بالأسباب والعلل المختلفة، على إثر هذه المفاجئة يمكن أن يأتي بردّ فعل مفاجئ غير إرادي أيضاً، ويمكن رؤية أثر هذه المفاجئة في كلامه وحركاته وأفعاله كلها. فيمكن أن يسأل سؤالاً لا يقصد منه أصل الجواب بل يريد أن يعبّر عن إعجابه فيأتي بجملة استفهامية. وعلى هذا الأساس نريد في هذا المقال أن نقوم بدراسة مفاجئة بشارة الأولاد إلى الأنبياء لنحلّلها أسلوبياً لنرى كيفية هذه الحوارت من حيث أنّهم كيف يتعاملون مع هذه الواقعة، مع أنّهم مؤمنون بإرادة الله (عز وجل) ولكنّهم لا يرون في أنفسهم القدرة على إنجاب الأولاد. فيتناول البحث المستوى الصوتي والموسيقي للأصوات والكلمات في الحوارات ويدرس المستوى التركيبي والدلالي والمعاني البلاغية الملازمة لها كالتكرار والاستفهام.

1.1. أسئلة البحث:

في هذا البحث اخترنا الحوارات التي جاءت في القرآن الكريم بين الأنبياء (عليهم السلام) والملائكة حين يبشرونهم بولادة ولد من جانب الله (عز وجل) فجأة والحالة التي تستولي عليهم من التعجب والدهشة مع الفرحة والسرور على أنّهم في سن الشيخوخة، فتهدف البحث إلى الكشف عن أهم الخصائص الأسلوبية في هذه الحوارات ضمن الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما السمات الأسلوبية الموجودة في هذه الحوارات؟

- لماذا يفاجئ الأنبياء بهذه البشارة وما مدى مفاجئة كل منهم؟

- كيف ينتهي الحوار بين الملائكة والأنبياء (عليهم السلام) وماذا ينتج عنه؟

2.1. فرضيات البحث:

_ يبدو أنّ الذين فوجئوا ببشارة الولد من الأنبياء (عليهم السلام) ونسائهم كثيراً ما استخدموا لبيان أحاسيسهم وتعجبهم من هذه الواقعة أسلوب الاستفهام التعجبي ضمن بيان دلائل عدم وجود الولد لهم ككبر السن وعقر نساءهم وعدم وجود الزوج و... .

_ يبدو أنّ تعجب الأنبياء (عليهم السلام) من هذه البشارة ينتج عن نظرهم إلى الكون نظرة إنسانية حيث يبحثون لكل معلول علة طبيعية فهم حين يشاهدون وجود الضعف وعدم القدرة على خلق الولد في أنفسهم يفاجئون بخبر البشارة، ولا يتعجبون من قدرة الله (عز وجل).

_ يبدو أن المفاجئة في هذه الحوارات تختلف درجتها من نبيّ إلى الآخر، حيث الأصوات المهموسة والمجهورة وكيفية استخدام الأدوات والجمل من حيث تقديم الكلمات فيها تختلف بعضها عن بعض.

3.1. خلفية البحث:

بعد أن راجعنا المصادر والمراجع المختلفة للبحث عن الأعمال والآثار التي يمكن أن تكون قريبة من هذا الموضوع أو تكون بينها وبين هذا الموضوع صلة فلم نعثر على موضوع مشابه في ضمن المقالات والرسائل والكتب المنشوره في المجلات ودور الكتب. فهذه الدراسة جديدة ولعلّها الدراسة الأولى في نوعها، إلّا أنّ هناك بعض الدراسات حول الأنبياء (عليهم السلام) ونساءهم لم تنظر إلى موضوع مفاجئة بشارة الولد في قصص الأنبياء (عليهم السلام) بشكل أسلوبي. وكذلك يوجد بعض البحوث قد استفيدت من بعض الألفاظ الموجودة في هذه الحوارت التي دارت بين الملائكة والأنبياء (عليهم السلام) كالبحوث التي تكون حول الاستفهام، مثل كتاب (أنى في القرآن الكريم) لـ(هادي بن عبد الله) أستاذ اللغة والنحو في جامعة صنعاء، فهو يقوم بدراسة معنى لفظ (أنّى) وعمله من خلال دراسته، وكذلك بحث في (معاني أنّى الاستفهامية في القرآن الكريم) أعدّه (أحمد قرضاوي) للحصول على الدرجة الجامعية في جامعة (شريف هداية الله) في (جاكارتا)، حيث يشير الباحث إلى معاني هذا اللفظ في آيات القرآن الكريم. وكتاب (البشارة في القرآن الكريم ومضامينها التربوية) لـ(عبد الرحمن الحازمي) حيث ألقى الكاتب في هذا الكتاب نظرة إلى

البشارات في القرآن بشكل عام ولم يشر الكاتب إلى المفاجئة التي تحصل إثر هذه البشارات. وهناك مقال تحت عنوان (المفاجئات في القرآن الكريم دراسة موضوعية) مقال مكتوب بقلم (طه سبتي إبراهيم)، (2018) منشورة في مجلة بحوث كلية الآداب بجامعة المنوفية في (مصر). الباحث قام بذكر بعض موضوعات المفاجئة الموجودة في القرآن الكريم كقيام الساعة ومفاجئة انقلاب العصا حية وتحول اليد بيضاء في قصة موسى (عليه السلام) ولم يشر الباحث في هذا المقال إلى موضوع بشارة الأولاد.

2. الإطار النظري

1.2. **المفاجئة**: هي في اللفظ «فجأهُ الأَمر يفجؤه فجأً بالفتح وفجاءةً بالضم: هجم عليه من غير أَن يشعر به، وقيل :إِذا جاءَه بغتةً من غير تقدّم سبب، وكلُّ ما هجم عليك من أَمر فقد فجئك كفاجأه يُفاجئه مفاجأةً وافتجأَه افْتجاءً، والفُجاءة بالضم والمدّ: ما فاجأكَ، وموتُ الفُجاءة: ما يفجأُ الإِنسانَ من ذلك»[1]. وفي الاصطلاح المفاجأة بشكل عام تعني الاختلاف بين ما يعتقده الشخص بشأن أمر ما، وما تحقق في الواقع. فالمفاجأة اختلاف بين العقيدة والواقع[2]. وتتحقق المفاجأة للرجل إذا كان واثقاً من حصول عمل أو عدم حصوله ولا يتوقع على الاطلاق غير ذلك لكنه يرى فجأة خلاف ما كان يتوقعه.

2.2. **البشارة والتبشير**: وردت في القرآن الكريم مادة (بشر) 123 مرة، يختص 84 منها موضوع البشارة. ومن هذه 9 منها الفعل الماضي، و16 الفعل المضارع، و21 فعل الأمر، و18 المصدر، و11 اسم الفاعل، و9 صيغة المبالغة. في تعريف مادة بشر والبشارة والبشرى في كتب اللغة قيل: «بشرَ بكذا يبشرُ مثل فرحَ يفرح وزناً ومعنًى وهو الاستِبشار أيضاً والمصدر البشور ويتعدّى بالحركة فيقال بشرْتُه أَبْشره بشراً من باب قتل فى لغة تهامة وما والاهَا والاسم منه بشر بضمّ الباءِ والتعدية بالتثقيل لغة عامّة العرب وقرأَ السّبعة باللغتين واسم الفاعل من المخفف بشير ويكون البشير فى الخير أَكثر من الشر والبشرى فعلى منْ ذلك والبشارة أيضاً بكسر الباء والضم لغةٌ وإِذا أطْلِقت اخْتصّتْ بالخير»[3]. ويقال بَشَرني فلان بوجه حسَن: أى لقيني، وهو حسَن البِشر أى طَلق الوجه، بَشِر به يبشَر بَشَرا: فرح و بشَره بالأمر يبشُره بَشرا وبُشورا وبشّره وأبشَره: فرّحه، فبشَر به وتبشّر وأبشَر واستبشر: فرح، والاسم: البِشر والبِشارة سميت بذلك لأن الذى يُبشّر بما يُسرّه تحسُن بَشَرة وجهه، وقد بشرَ بَشارة: إذا حسُن وجمُل والبَشِير: المُبشِّر والبِشارة: ما يعطاه المُبشر وهم يتباشرون بالأمر أى يبشُر بعضهم بعضاً[4]. من خلال ما سبق تبين أن المعنى اللغوي للبشارة يدور حول الخبر السار والمفرح، والحسن والجمال الذي يظهر على الوجه.

وأما البشارة في الإصطلاح عرفها الجرجاني بقوله: «كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه، ويستعمل في الخير والشر، وفي الخير أغلب[5]. وذكر ابن عاشور في تعريفها بقوله: «خبر بحصول ما فيه نفع ومسرة للمخبر به[6]. والتبشير: فهو إيصال الانبساط والطلاقة إلى الغير والإيجاد فيه، كما هو مقتضى التعدية[7]. ويتضح مما سبق أن البشرى في الاصطلاح تعني نقل الأخبار السارة التي تحمل النفع والمسرة والاستبشار بحصول الخير لمن نقل إليه الخبر.

3. دراسة وتحليل

1.3 مفاجئة بشارة الولد إلى إبراهيم (عليه السلام)

إن أول من بشرّه الملائكة بشأن الولد في القصص القرآنية هو إبراهيم (عليه السلام)، فحين طلب من ربه أن يعطيه ولداً وكان شيخاً كبيراً غير قادر أن ينجب الولد وامرأته كذلك كانت عجوزاً عقيماً أجاب الله (عز وجل) دعوته فبشّره الملائكة بإجابة دعوته فيكون له الولد الذي طلبه من ربّه. حينئذٍ فاجأ إبراهيم (عليه السلام) بهذه البشارة حيث لا يرى الأسباب متوفرة لينجب منه ومن امرأته العجوز الولد.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُون﴾ ﴿قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿قالَ أَ بَشَّرْتُمُوني عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ (الحجر، الآيات 52-54). هذه الآيات تتشكل من 104 حرفاً، تبلغ عدد حروفها المهموسة 23 حرفاً وحروفها المهجورة 81 حرفاً. فنسبة الحروف المهموسة 22% ونسبة الحروف المهجورة 78%، أما في آية رقم 53 التي جاءت على لسان الملائكة، فعدد حروف الآية 26 حرفاً تبلغ حروفها المجهورة 22 حرفاً ونسبتها 85% وحروفها المهموسة 4 حروف ونسبتها 15%، ولكن في آية رقم 54 التي ذكرت على لسان إبراهيم (عليه السلام) فعدد حروف الآية تبلغ 35 حرفاً ونسبة حروفها المجهورة 71% ونسبة حروفها المهموسة 29%. وهذا الازدياد في نسبة الحروف المهموسة في كلام إبراهيم (عليه السلام) لعله يدلّ على أنّ ذلك الإعجاب والدهشة التي سيطر على نفسه حين سمع من الملائكة بشارتهم بغلام عليم لم يكن شديداً مع أنّه كان في سن الكبر ووامرأته كانت عاقراً طوال حياتها.

تبدأ القصة ببشرى من الله لنبيّه إبراهيم (عليه السلام) الذي وصل إلى كبر السن وكانت امرأته عجوزاً وعقب هذه البشارة تعجب إبراهيم (عليه السلام) وامرأته، ففي الحوار بينهم جاء الاستفهام (أ) بمعنى التعجب، لأنّه كان كبير السن ولا يرى في نفسه وامرأته قدرة على إنجاب الولد. وتعجبه كان من بشارة الملائكة إياه على هذه الحالة من الكبر والشيخوخة التي تنافي مع القدرة على إنجاب الولد. والإستفهام في هذا الموضع استفهام عن طريقة الولادة حيث تؤدي إلى التعجب والمفاجئة، وعلى هذا يقول

الزمخشري: هي (يعني ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾) ما الاستفهامية، دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشروني. أو أراد: أنكم تبشرونني بما هو غير متصوّر في العادة، فبأي شيء تبشرون، يعني: لا تبشرونني في الحقيقة بشيء، لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء. ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالا عن الوجه والطريقة يعني: بأى طريقة تبشرونني بالولد، والبشارة به لا طريقة لها في العادة» [8]. وحذف مفعول (بشرتموني) لدلالة كلام عليه.

فلو قيل كيف سعى الله عاجزاً عن الخلق من نفسه في شيخوخته وكفر بهذا القول لأنه أنكر قدرة الله، أجاب بعض المفسرين عن هذا السؤال بأشكال مختلفة، فيقول أحدهم: أنه أراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابا، ثم يعطيه الولد، والسبب في هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب، وفيه جواب آخر، وهو أن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره و يصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلمات مضطربة في ذلك الفرح في ذلك الوقت، وقيل أيضا: إنه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين وأكثر طلبا للالتذاذ بسماع تلك البشارة، وطلبا لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله: ﴿وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة، الآية 260) و قيل أيضا: استفهم أ بأمر اللّه (عز وجل) تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم؟ [9] ويجيب الطباطبايي عن هذا السؤال «هو استفهام عما بشروه به كأنه يشك في كون بشارتهم بشرى بالولد مع تصريحهم بذلك لا استبعاد ذلك فيسأل ما هو الذي تبشرون به؟ فإن الذي يدل عليه ظاهر كلامكم أمر عجيب، وهذا شائع في الكلام يقول الرجل إذا أخبر بما يستبعده أو لا يصدقه: ما تقول؟» [10]. فأجاب إبراهيم (عليه السلام) متعجّبا مستبعدا من مجيء ولد حال كبره وكبر زوجته، أ بشّرتموني بذلك بعد أن أصابني الكبر، فبأي أعجوبة تبشّرونني، فذلك غير متصوّر في العادة، و ليس ذلك نفيا لقدرة الله (عز وجل) في خلق العجائب. والمسّ يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى. نحو قوله: ﴿وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ (البقرة، الآية 80)، ﴿و قال: مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ﴾ (البقرة، الآية 214) [11]، كأنّه قد أوذي من الكبر وعلى هذا قال مسني الكبر، و(على) بمعنى (مع) أي مع مس الكبر بأن يولد لي أي أن الولادة امر مستنكر عادة مع الكبر وأمر عجيب من بين هرمين وهو حال أى أ بشرتموني كبيرا او بمعنى (بعد) أى بعد ما أصابني الكبر والهرم [12].

وهذا من كلام السيدة سارة امرأة إبراهيم (عليه السلام) حين سمعت الخبر ﴿قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجيبٌ﴾ (هود، الآية 72) فهي كانت عاقراً طول حياتها وحين سمعت كلام الملائكة مع إبراهيم (عليه السلام) وبشارتهم إياه بولادة ولد له تعجّبت وقالت: أ ألِدُ؟ وما أشارت إلى كونها عاقراً في كلامها لأنّها كانت تؤمن بالله إيماناً واثقاً وتعلم بأن لا يغيّر شيء إرادة الله تبارك وتعالى فحين يأمر يتمّ أمره على الفور. وتعجبها كان بحسب العرف والعادة لا بحسب قدرة الله (عز وجل)كما إذا قيل لرجل مؤمن إنّ الله يقلب هذا الجبل ذهباً فلا شك إنه يتعجب نظراً إلى العرف والعادة لا لأنه يستنكر قدرة الله على ذلك.

فالآية تشكّلت من 46 حرفاً 6 منها من حروف الهمس ونسبتها تبلغ 13% و40 منها من حروف الجهر ونسبتها تبلغ 87%. كأنّها حين سمعت هذا الخبر وهي في سن العجوز وبعلها في سن الشيخوخة خافت من أثر سوء هذا الخبر بين الناس بأن يقال فيها امرأة إبراهيم (عليه السلام) حملت في سن العجوز وحمل النساء في سن العجوز منذ ذلك الوقت كان مذموماً في المجتمع. كما جاء في موضع آخر من القرآن حول امرأة إبراهيم (عليه السلام)، ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ في صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقيمٌ﴾ ﴿قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكيمُ الْعَليمُ﴾ (الزاريات، الآيتان 29-30)، حيث يقول القرآن في وصفها ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَها﴾ يعني ضربت بيدها على وجهها من الحياء والتعجب، فلهذا تجهر بصوتها حين تفاجئ وتسمع هذا الخبر خلافاً لإبراهيم (عليه السلام) الذي كان اكثر طمأنينة وهدوءاً لمّا سمع خبر الملائكة. لأنها كانت عقيماً والعقيم هي التي لا تلد وليس بها مرض ولكنها خلق الله على العقم يعني فاقدة للجهاز المختص بعملية الإنجاب ومن هذه الآية يتضح أن العقم خلقة يخلق عليها الإنسان ولا تمكن معالجته، وكان تعجب امرأة إبراهيم (عليه السلام) من هذا الأمر حيث كانت عقيماً وبشروها بالولد وقالوا لها بأن الله (عز وجل) أراد أن يهب لك ولداً مع أنك عقيم والله (عز وجل) هو الحكيم العليم والقادر على كل شيء. فهذه المرأة لم تكن تأمل في الأولاد في ذلك السن فهي كانت في التسعينيات من عمرها فقالت أنا عجوز عقيم، وأنها لو تأمل في الولد لما تصف نفسها بالعقيم، ولكن أراد الله (عز وجل) أن يهب لها الولد وهو على كل شيء قدير ويستطيع أن يجعل العقيم ولوداً.

في هذه الآية نشاهد كيف تسأل امرأة إبراهيم (عليه السلام) حين تفاجئ ببشارة الولد، فهي تأتي بحرف (أ) الاستفهامية دون غيرها من الأدوات الاستفهامية وهذا الاستخدام يدل على أنّ هذه المرأة حتى في ذلك الحين من عمرها لم تقنط من رحمة الله الواسعة، على أنّ حرف (أ) بين أدوات الاستفهام هي تأتي للتصور والتصديق وقد خرجت هنا عن معناها الاستفهامي لتدلّ على التعجب والمفاجئة التي سيطرت على امرأة إبراهيم (عليه السلام) حين سمعت بشارة الملائكة بأنّها تلد بعد أن كانت عاقراً في حياتها. فهي لم

تستخدم غيرها من أدوات الاستفهام كـ(أنّى)، و(هل) وغيرها لأنها كانت تؤمن في قلبها بمشيئة الله (عز وجل) وجاءت بأضعف الأدوات الاستفهامية لبيان ما في قلبها من الاعتقاد بأمر الله (عز وجل). وفي تقديمها نفسها (أ ألد وأنا عجوز) على بعلها دلالة على أنّ المانع من الولادة كانت من عند نفسها والبشارة كانت متوجهة إليها صريحا و لأن العكس في البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع عن الولادة إلى جانب إبراهيم (عليه السلام) الذي يشير إليه باسم الإشارة هذا ليدل على ضعفه وشيخوخته يعني أنني امرأة عجوز وهذا الرجل الضعيف الذي في سن الشيخوخة هو بعلي فكيف يمكن أن يكون لنا ولد؟ وفي استخدام اسم الإشارة مرة ثانية بديلاً عن ذكر الولادة من امرأة عاقر وشيخ كبير في الآية دلالة على عظمة الأمر وشدتها لأن أمر الولادة بين شيخ كبير وامرأة عاقر بشّرها الملائكة كان لها عجيباً كما أشارت إليها في الآية. ولم يكن تعجبها من قدرة الله (عز وجل) بل كان تعجبها من كيفية الولادة بأن تلد في سن الشيخوخة أم تصير شابة وفي كلتا الحالتين أمر الولادة عجيب. وزادت تقرير التعجب بجملة إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ وهي جملة مؤكدة لصيغة التعجب فلذلك فصلت عن التي قبلها لكمال الاتّصال، وكأنّها كانت متردّدة في أنهم ملائكة فلم تطمئنّ لتحقيق بشراهم[13].

فنرى في هذه القصة إبراهيم (عليه السلام) وامرأته حين يفاجئان ببشارة الولد كيف يواجهان مع الموضوع حيث يأتيان بالعبارات والجمل التي تعبر عن إيمانهما بالله تعالى ومع أنهما كانا مؤمنين بالله وإرادته وقدرته على كل شيء لكنهما تعجبا من خبر الملائكة حيث لم يريا في أنفسهما قدرة على إنتاج الأولاد في ذلك السن.

2.3 مفاجئة بشارة الولد إلى زكريا (عليه السلام)

الموضع الثاني للبشارة بشأن الأولاد فهو في قصة زكريا (عليه السلام) حيث يطلب من الله تبارك وتعالى أن يعطيه ولداً فتستجاب دعوته فيبشره الملائكة بولد اسمه يحيى، فهذه القصة جاءت في سورتي آل عمران ومريم. فنبدأ بتحليل الآيات التي جاءت في سورة آل عمران:

﴿هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ﴾ ﴿فنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ ﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾ (آل عمران:48- 31) حصلت المفاجئة في هذا المقام في حوار بين زكرياء والملائكة وهم يبشرونه بولد صالح إثر دعائه الذي

استجابه الله (عز وجل)، فزكريا (عليه السلام) كان في كبره وامرأته مثله أيضاً كانت كبيرة السن وكذلك كانت عاقراً طول حياتها.

الحوار تشكّل من 316 حرفاً، الحروف المهموسة تبلغ عددها 67 حرفاً والحروف المجهورة تبلغ عددها إلى 249 حرفاً. النسبة المئوية للحروف المهموسة 21% والنسبة المئوية للحروف المجهورة 79%. من كل هذه الحروف 93 حرفاً ذكرت على لسان زكريا (عليه السلام) 13 منها حرف مهموس و80 منها حرف مجهور والنسبة المئوية لحروف الهمس الجارية على لسانه تبلغ 13% والنسبة المئوية لحروف الجهر الجارية على لسانه تبلغ 87%. فنلاحظ أنّ زكريا (عليه السلام) كيف استفاد من حروف الجهر في كلامه خاصة حين بشره الملائكة بيحيى (عليه السلام) ففوجئ وقال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ﴾ المتشكلة من 41 حرفاً، حيث 4 من حروف هذا الكلام حرف همسي ونسبتها تبلغ 10% فقط. إنّ النسبة الطبيعية لتوافر الحروف المهموسة والمجهورة في كلام ليست متعادلة بل الحروف المجهورة تستخدم في الكلام أكثر من الحروف المهموسة، حتى يقول أحد الباحثين: وقد برهن الاستقراء على أن نسبة شيوع الأصوات المهموسة في الكلام لا تكاد تزيد على الخمس أو عشرين في المائة منه، في حين أن أربعة أخماس الكلام تتكون من أصوات مجهورة[14]. ومع هذا البيان أيضا نرى النسبة الموجودة بين حروف الهمس والجهر في كلام الملائكة وزكرياء (عليه السلام) تختلف حيث يستخدم الملائكة في كلامهم الحروف المهموسة والمجهورة بشكلها الطبيعي تقريباً أما زكرياء (عليه السلام) فيستخدم الحروف المجهورة لبيان حاجته خلافاً للملائكة حيث يتكلمون معه بكلام طبيعي.

إنّ من الكلمات الرئيسية في هذا المقام استخدام كلمة (أنّى) الاستفهامية لبيان ذلك الإعجاب الذي وافى زكريا (عليه السلام)، فعلينا أن نأتي بخصائص وميزات هذه الكلمة ليتضح مدى إعجاب زكريا (عليه السلام) بخبر بشارة الملائكة.

ففي تعريف الاستفهام قال مصطفى المراغي في تعريف الاستفهام «إنّ الاستفهام هو طلب فهم شيء لم يتقدّم لك علم به، بأداة من إحدى أدواته وهي: الهمزة- وهل- ومن- ومتى- وأيان- وأين- وأنّى- وكيف- وكم- وأيّ»[15]. ورد الاستفهام في القرآن الكريم على اصل معناه وهو طلب الفهم والمعرفة وذلك خرج بعض الأحيان عن معناه الأصلي لأداء معنى آخر مثل التعجب والإنكار والتوبيخ والتقرير وغيرها، إنّ الكلام لو جرى على طريق الخبر دائماً لكان مما يفرض فيه المعبر نفسه على المخاطب دائماً ولا يعترف لوجوده بنصيب كاف. والمحادثة الشائقة تقوم على المشاركة الخصبة التي يحققها الاستفهام. فالاستفهام تلطف وتقدير لشخصية من نتحدث إليه فنرغبه في أن يتناول معنى الموضوع الذي نعالجه، وكان يبعث

الرضا في نفس السامع ويقوي الحاجة إلى التفكيروتخيل المعنى[16]. فمن بلاغة الاستفهام استخدام صيغة الاستفهام للتوبيخ وذلك توبيخ النفس على فعل وقع وكان الأولى ألا يقع وتوبيخها على فعل لم يقع وكان الأولى أن يقع، ولعل السر في ذلك أن يثير في النفس التفكير ويدفعها إلى تدبر الأمور حتى تقتنع بتفكيرها الخاص بأنّه ما كان ينبغي أن يقع ما وقع أو كان صواب أن يقع ما لم يقع[17].

أَنَّى: معناه أَينَ. تقول: أَنَّى لك هذا أَي من أَين لك هذا، وهي من الظروف التي يُجازى بها، تقول: أَنَّى تَأْتني آتك؛ معناه من أَيّ جهة تَأْتِني آتكَ، وقد تكون بمعنى كيفَ، تقول: أَنَّى لك أَنْ تَفتحَ الحصن أَي كيفَ لكَ ذلك. التهذيب: قال بعضهم أَنَّى أَداةٌ ولها معنيان: أَحدهما أَن تكون بمعنى متى؛ قال الله تعالى: قلتم أَنَّى هذا؛ أَي متى هذا وكيف هذا، وتكون أَنَّى بمعنى من أَين، قال الله تعالى: وأَنَّى لهم التَّناوش من مكان بعيد؛ يقول: من أَين لهم ذلك؛ و قد جمعهما الشاعر تأْكيداً فقال:

أَنَّى و مِنْ أَيْنَ آبَكَ الطَّرَبُ[18]

و في التنزيل العزيز: قُلْتُمْ أَنَّى هذا؛ يحتمل الوجهين: قلتم من أَيْنَ هذا، و يكون قلتم كَيْفَ هذا. و قال تعالى: قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا؛ أَيْ من أَيْنَ لك هذا[19].

وذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعاً في تسع عشرة سورة منها ثلاث عشرة سورة مكية وست سور مدنية، أولها في سورة البقرة وآخرها في سورة الفجر. من هذه المواضع جاءت ستة منها لبيان الدهشة والإستغراب والتعجب وكلها يرجع إلى المواضع التي ترجع إلى الحوار بين الأنبياء (عليهم السلام) والملائك حين يخبرهم ويبشرهم بولادة طفل لهم وهم يتعجبون من هذا الأمر حيث لا يرون في أنفسهم قدرة على خلق الأولاد. كذلك جاءت (أنّى) في ثلاثة مواضع للنفي والإنكار وفي ثلاثة عشر موضعاً للإنكار والتوبيخ وفي موضعين بمعنى (كيف).

فنرى في اللغة العربية وفاقاً بين اللفظ ومعناه بحيث كل لفظ يزداد مبناه أي عدد حروفه وحركاته يزداد في معناه شيئاً لا يوجد في غيره، فإذا نظرنا إلى لفظ (أنّى) وغيره من أدوات الاستفهام نراه يتخلف عنها في المعنى، كما أن لكل منها معنى خاص. فـ(أنّى) «وهي ظرف للمكان يفيد العموم نحو (أنّى تذهب أذهب) ويبدو أنها أكثر عموماً من (أينَ) لمكان المدة فيها، فإنّ اطلاق الألف قد يدلّ على سعة المكان فيها. والملاحظ في العربية أنّ الكلمة يتقارب معناها ومبناها فـ(لا) مثلا أوسع في النفي من (لن) أي أنّ زمنها أطول لأنّها تكون للحال والاستقبال والمضي نحو ﴿فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى﴾ (القيامة، الآية 31) و(لن) مختصة بنفي

المستقبل، ولا مطلقةأي أنّ صوتها غير محدود و(لن) مقيدة بالسكون. فمدة الألف في (أنّى) تطلق المكان اطلاقاً بعيداً بخلاف (أينَ) التي لا يمتدّ الصوت بها امتداداً بعيداً»[20].

تشكلت هذه الكلمة من الهمزة وهي حرف شديد يحصل صوته بانطباق فتحة المزمار وانفراجه الفجائي قبل أن يصل النفس إلى الحنجرة[21]. ومن خصائص هذا الحرف بروزه في الكلام كمن يقف فوق مكان مرتفع فيلفت الانتباه[22]. وحرف النون المشددة حيث يقول عن خصائص هذا الحرف عباس حسن الإيحاءات الصوتية في النون مستمدة أصلاً من كونها صوتاً هيجانياً ينبعث من الصميم للتعبير عفو الفطرة عن الألم العميق ولذلك كان صوت الرنان ذو الطابع النوني أي ذو المخرج النوني الذي تتجاوب اهتزازاته الصوتية في التجويف الأنفي، هو أصلح الأصوات قاطبة للتعبير عن مشاعر الألم والخشوع[23]. والالف اللينة في آخر هذه الكلمة يقول عباس حسن عنها إنّ الألف اللينة التي تقع في أواسط المصادر أو أواخرها يقتصر تأثيرها في معانيها على إضفاء خاصية الامتداد عليها في المكان أو الزمان[24]. كأنّ النبي زكريا (عليه السلام) حين تأتي بهذه الكلمة في بداية كلامه لما يبشرونه الملائكة بالولد يحيى يبيّن عما في نفسه من قلق واضطراب الممتد طوال حياته بصوت مبرز عال، لأنّه كان شيخاً ولم يرزق في شبابه ولداً ومع أنّه كان مؤمناً بقدرة الله وإرادته لم يكن يرى هذا العمل ممكناً عادةً.

خرج في هذه الآية الاستفهام عن معناه الحقيقي، لأنّ زكرياء (عليه السلام) لايريد أن يسأل عن مكان الولد أو كيفية خلقه، بل هو يتعجّب من هذا الخبر وجاء بكلامه على أسلوب الاستفهام مبيناً عن تعجبه ودهشته. (أنّى) في هذه الآيات استفهام للاستبعاد، حيث المخاطب بهذه الآيات حين لم ير في نفسه القدرة على إنتاج الولد، سأل مستفهماً كيف يمكنني أن يكون لي ولد في حين غلبني الكبر وضعف قدرة جسمي وبدني، لأنّه لا يمكن على سبيل العادة أن ينتج ولد من شيخ كبير في السن وامرأة عاقر، فلما أخبرته الملائكة بهذا الخبر ففاجأ حين سمعه وبدأ بكلامه مستفهماً عن كيفية وقوع هذا الخبر على حين ضعفه حيث كان شيخاً عجوزاً وبلوغ امرأته إلى سن العقر وفي هذا السن لا يمكن عمل اللقاح على سبيل العادة.

وهذا كلام الزمخشري في تبين هذه المفاجأة حيث جاء على سبيل الاستفهام بـ (أنّى)، أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ استبعاد من حيث العادة كما قالت مريم (عليها السلام)، ﴿وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ كقولهم: أدركته السنّ العالية. و المعنى أثر فيّ الكبر فأضعفنى، و كانت له تسع و تسعون سنة، و لامرأته ثمان و تسعون كَذلِكَ أى يفعل اللَّه ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، و هو خلق الولد بين الشيخ الفاني و العجوز العاقر، أو كذلك اللَّه (عز وجل) مبتدأ و خبر، أى على نحو هذه الصفة اللَّه (عز وجل)، و يفعل ما يشاء

بيان له، أى يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات[25]. ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ حال من ياء المتكلم أي أدركني الكبر وأثر فيّ، وأسند البلوغ إلى الكبر توسعا في الكلام كأن الكبر طالب له و هو المطلوب، ﴿وَامْرَأَتِي عاقِرٌ﴾ جملة حالية أيضا إما من ياء لِي أو ياء بَلَغَنِيَ و- العاقر- العقيم التي لا تلد من العقر- وهو القطع لأنها ذات عقر من الأولاد، وصيغة فاعل فيه للنسب وهو في المعنى مفعول أي معقورة، ولذلك لم تلحق تاء التأنيث- قاله أبو البقاء- وكانت الجملة الأولى فعلية لأن الكبر يتجدد شيئا فشيئا ولم يكن وصفا لازما (وكانت) الثانية اسمية لأن كونها عاقرا وصف لازم لها وليس أمرا طارئا عليه[26].

﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ استفهام والمراد منه التعجّب، قصد منه تعرّف إمكان الولد، لأنّه لما سأل الولد فقد تهيّأ لحصول ذلك فلا يكون قوله ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ إلّا تطلبا لمعرفة كيفية ذلك على وجه يحقّق له البشارة، وليس من الشك في صدق الوعد، وهو كقول إبراهيم: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة، الآية 260)، فأجيب بأنّ الممكنات داخلة تحت قدرة الله (عز وجل) وإن عز وقوعها في العادة.

و(أنّى) فيه بمعنى كيف، أو بمعنى المكان، لتعذّر عمل المكانين اللذين هما سبب التناسل وهما الكبر والعقرة. وهذا التعجّب يستلزم الشكر على هذه المنّة فهو كناية عن الشكر. وفيه تعريض بأن يكون الولد من زوجه العاقر دون أن يؤمر بتزوّج امرأة أخرى وهذه كرامة لامرأة زكريا (عليه السلام)[27].

فهذا زكرياء (عليه السلام) حين يسمع هذه البشارة يتعجب ويفرح كثيراً حتى يقول ﴿أنّى يكون لي غلام﴾ والمولود ليس في بداية أمره غلاماً، لأنّ الغلَام: الابْن الصغِير وجمع الْقلة (غِلمة) بِالكَسر وجمع الكثرة (غِلمان) ويطلق (الغلَام) عَلَى الرَّجل مجازاً باسم ما كان علَيه[28]. وبكلام آخر هو من حين يولد إلى أَن يشيب[29]. وجاء زكرياء (عليه السلام) في كلامه بجملتين حاليتين وهما ﴿وقد بلغني الكبر﴾ و﴿وامرأتي عاقر﴾ لأنّه مع إيمانه بالله (عز وجل) وإيمانه بقدرته على تغيير نظام الكون وخلقه وفق أسباب والعوامل غير عادية، يريد أن يطمئنّ قلبه من الخبر المذكور مع أنّه لا قدرة على انتاج الولد بصورة معتادة.

أما في دلالة كلمة المرأة في هذه الآية فهناك نقطة ظريفة لابدّ أن نلقي الضوء عليها وهي أنّ في هذه الآية قال زكرياء (عليه السلام) وامرأتي عاقر ولم يستفد من كلمة الزوج، فالقرآن الكريم استعمل كلا اللفظين في مواضع مختلفة ولكن هناك اختلاف في معنى هذين اللفظين، فالزوج استعمل في القرآن حيث يوجد بين الرجل وصاحبته التفاهم والانسجام من كل الوجوه بعيداً عن أيّ اختلاف بينهما من حيث العقيدة والأمور النفسية والجنسية، كما في آية ﴿ومِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْه﴾ (الروم، الآية 21) ﴿وآية وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة، الآية 35) ولكن إذا انتفى

بعض من هذه الانسجامات ولو بشكل جزئي بين الرجل وصاحبته فهناك جاء القرآن الكريم بلفظة المرأة كما سمّى امرأتي نوح ولوط بهذه اللفظة. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوط﴾ (التحريم، الآية 10) لأنّهما لم تكونا على دين زوجيهما كانت تختلف عقيدتهما عن زوجيهما فهذا السبب استعمل لفظة امرأة في هذه الآية ولم تستعمل لفظة زوج. أمّا في الآية المذكورة على لسان زكرياء فهو أيضاً استفاد من لفظة المرأة لأنّ امرأته لم تكن تنسجم مع زكرياء (عليه السلام) من حيث الصحة الجنسية فهي كانت عاقراً طول حياتها لم تكن قادرة على حمل الأولاد وعلى هذا الاختلاف بينهما لم يستعمل القرآن الكريم لها لفظة الزوج حتي تباعدت عنها هذه النقيصة ففي ذلك الحين جاء القرآن لها بلفظة الزوج ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعينَ﴾ (الأنبياء، الآية90). فالإصلاح هنا بمعنى أنها كانت عقيماً لا تلد، فأزلنا عنها عيبها وجعلناها ولوداً.

وهناك في سورة مريم نفس القصة والمضمون جاء على لسان زكريا (عليه السلام) ﴿كهيعص﴾ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾ ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائي وَكانَتِ امْرَأَتي عاقِراً فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ﴿قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ﴿قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ ﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم، الآيات 1-10)، إن زكريا (عليه السلام) لم يكن قانطاً من ربّه حيث يدعوه ويخاطبه في هذه الآيات، لكنّه لم يكن له أملاً كثيراً في استجابة دعائه، ويظهر هذا من كلامه حيث يأتي بالحجج الكثيرة والأدلة المتعددة ليرضى ربّه في قبول دعائه شأن الذي يطلب من غيره شيئاً لا يطمئن في استجابته فيكرر طلبه دائماً.

فلتحليل هذا الحوار من حيث الأصوات التي تشكل منها أحصينا الأصوات المجهورة والمهموسة التي توجد في الحوار أوّلاً، فرأينا مجموع حروف هذا الحوار تبلغ 386 حرفاً، الحروف المهموسة 81 حرفاً فالنسبة المئوية لهذه الحروف من كل الحروف تساوي عدد 21% والحروف المجهورة 305 مرات، والنسبة المئوية لها تساوي 79%. فنلاحظ أنّ الحوار توارت عليه الأصوات المجهورة ولعلّ الظروف الصعبة التي كانت في نفس زكريا (عليه السلام) من عدم وجود ولد له ليرثه ويحفظ عماد بيته دعته إلى استخدام حروف الجهر أكثر في كلامه، لأن الحروف المجهورة تتصف بحركة قوية وحماسية وتدلّ على رغبة المتكلم

في شدة انتباه السامع فيستخدم زكريا (عليه السلام) هذا الصوت بالنسبة العالية في كلامه، والحروف المهموسة فيه ضعف و خفوت وفي هذا الحوار استفيد في أكثرها على لسان الملائك حيث يتكلمون مع زكريا (عليه السلام) بالعاطفة والإحساس اللينة.

وأما الأصوات الشديدة فمجموعها تبلغ 95 مرة والنسبة المئوية تساوي 69% والأصوات الرخوة تبلغ مجموعها 42 مرة والنسبة المئوية تساوي 31% ، ومن خلال هذا الإحصاء نلاحظ أن توظيف الأصوات الشديدة أكثر من الأصوات الرخوة في حوار زكريا (عليه السلام) والملائك وكان هذا الاستخدام وسيلة للتعبير عما في نفسه من الآلام والأحزان وما يجول في ضميره من أسى وضجر إثر عدم وجود ولد له طوال حياته. واستخدامه للحروف الرخوة لبيان إحساسه بالألم الذي كان يرافقه في حياته حيث كان يرى نفسه يصل إلى نهاية عمره وامرأته عاقراً لا تلد.

يبدو أنّ هناك بين لفظتي (نداء) و(خفيا) تناقضاً في المفهوم، فكيف يمكن أن يكون النداء بشكل خفي؟! فإذا نظرنا إلى معنا هاتين اللفظتين نرى أنّ النداء جاء بمعنى الدعاء كما يقول الراغب: والنداء الدعاء، وكسر النون أكثر من ضمّها، والمدّ فيها أكثر من القصر. وناديته مناداة ونداء من باب قاتل: إذا دعوته وأنّ الأصل الواحد في المادّة واويّة: هو دعوة في مخاطبة. وفي البائيّة: هو الترشّح والابتلال. فمن الواويّة تقول: ناداه نداء ومناداة وبناديه فتنادى تناديا، أى الدعوة في الخطاب، بأىّ كلمة كان[30]. فعلى هذا المعنى يمكن في النداء بأن يكون بشكل خفي لأنّه دعاء والدعاء يمكن أن يكون في القلب.

والخفاء له معنيان وهو من الأضداد كما يقول أحد الباحثين: خفى الشيء يخفى خفاء: استتر أو ظهر، فهو من الأضداد، وبعضهم يجعل حرف الصلة فارقا، فيقول خفي عليه إذا استتر، وخفى له إذا ظهر، فهو خاف وخفّى أيضا، ويتعدّى بالحركة فيقال خفيته أخفيه إذا سترته أو أظهرته- من باب رمى. وفعلته خفية. ويتعدّى بالهمزة أيضا فيقال أخفيته. وبعضهم يجعل الرباعي للكتمان، والثلاثىّ للاظهار. وبعضهم يعكس. واستخفى من الناس: استتر[31]. فإذا كان من معاني الخفاء هي الإظهار يمكن أن نقول بأنّ نداء زكرياء (عليه السلام) كان واضحاً جليّاً حيث طلب من ربّه بأن يعطيه غلاماً ليرثه.

فمن حيث التقديم والتأخير في سورة آل عمران قدّم نفسه كعامل مانع من الذرية وأخّر زوجته لأنّه كان مشغولاً بالدعاء وهذا يناسب شأن الدعاء حيث كان مشغولاً بالصلاة في المحراب ويقول بضعفه قبل ضعف امرأته، أما في سورة مريم يبدأ بما هو أغرب من حيث منع الولد وهو كون امرأته عاقراً منذ شبابها مهما هو أيضاً قد وصل إلى سن الكهولة لكنّه كان قبل ذلك منجباً. ولأنّ زكريا (عليه السلام) في

الآيات السابقة من هذه الآية كان قد تكلم عن ضعفه وكهولته ففي نفس الآية يقدم أمر زوجته على أمره خلافاً لآيات سورة آل عمران حيث يبدأ بنفسه في الآية ويؤخر أمر زوجته.

وهناك اختلاف بين عبارتي ﴿وَامْرَأَتي عاقِرٌ﴾ و﴿وَكانَتِ امْرَأَتي عاقِراً﴾، يبدو أن هذين الكلامين قد جاءا في زمان ومكان واحد غير أن هناك اختلاف زماني بين هذين الكلامين. إن زكريا عليه السلام حين دعا ربه ليهبه ذرية طيبة فبشره الملائكة بيحيى (عليه السلام) ففي ذلك الحين أي حين البشارة يقول زكريا (عليه السلام) ﴿امرأتي عاقر﴾ فكيف يمكن هذه البشارة؟ ولكن حين تحققت هذه البشارة وحملت زوجته قال زكريا (عليه السلام) ﴿كانت امرأتي عاقراً﴾ يعني كان بين زمن البشارة وزمن حصول الفعل وقتاً طويلاً وعلى هذا يقول زكريا (عليه السلام) حين حملت زوجته ﴿كانت امرأتي عاقراً﴾ في ما قبل. وعلى هذا نرى أن الجواب لهذين الكلامين يختلف في كل الزمان، حيث قيل في جواب وامرأتي عاقر ﴿كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾، استفاد من فعل مضارع ليدل على الإستقبال بمعنى أننا سنعمل بهذا القول والبشارة، وفي جواب ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ قيل ﴿قال رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فهذا الكلام قيل حين حملت امرأة زكريا (عليه السلام) وتحقق القول بالبشارة كأن الله تبارك وتعالى يقول أنا قادر على كل أمر فإذا أردت شيئاً أفعله كما وهبت لك ولداً.

وقال امرأتي عاقر، لأنه كان يتوقع أن يستجيب الله دعائه، ومعنى عقر هو تحوّل في مسير الحياة وتغيير الحركة الطبيعيّة بحيث يلغو جريانه الأصيل، وهذا المعنى يختلف ويتفاوت بحسب اختلاف الموضوعات: كتحوّل التوليد في المرأة فيقال انّها عاقر ... والعاقر من تحوّل جريان أمره، وفي النساء إذا تحوّل جريانها الطبيعيّة ولم تلد، وهذا من الصفات الخاصّة بالنساء كالحيض، ولا تؤنّث صيغته[32]. فالعقر صفة عارضة على المرأة وليس من أصل الخلقة فقد يكون من كبر السن ونحوه وعلى هذا اقترن زكريا بين كبر سنه وكون امرأته عاقراً فالنتيجة هي أن العقر ينزل بالمرأة من عاهة أو مرض يمنعها من الولادة. ولم يقل امرأتي عقيم لأن العقم هو حصول شدّة في جريان يوجب انتفاء الثمر، كالشدّة في جريان الحرب وفي جريان التخلّق وفي اعتداله، فظهر أنّ التعبير بالعاقر في صورة عروض التحوّل ثانياً كما في عقر المرأة المانعة عن الحمل، وأمّا العقيم: فالنظر فيه الى وجود المانع والشدّة من حيث هو[33]. فالعاقر هي التي فقدت قدرتها على الرغم من وجودها وعلى هذا لا تستطيع القيام بوظيفتها على أكمل الوجه. والعقيم هي التي انعدم النفع في أصلها كأن لم يكن لديها الجهاز الذي يقوم بالعمل فيها، فعلى هذا حين وصفت امرأة ابراهيم (عليه السلام) نفسها قالت ﴿عجوز عقيم﴾ (الذاريات: 29) ولم تقل أني عاقر لعلمها باختلاف معنى الكلمتين وزكريا (عليه السلام) حين وصف امرأته قال ﴿وَامْرَأَتي عاقِرٌ﴾ بمعنى أنها غير قادرة على الإنجاب بسبب مرض يصيبها أو لبلوغها سن اليأس وهذا يختلف عن عدم القدرة

والإنعدام على الإنجاب عند العقيم. «أصل عاقر عقر وأصل عقيم عقم، يشترك الفعلان في حرف العين والقاف ويختلفان في حرف الأخير الراء والميم، من صفات حرف الراء التكرار وهذا يناسب الإنجاب أما الميم فيخرج بانطباق الشفتين وهذا يناسب عدم القابلية للإنجاب، حرف الميم حرف مقفول، ولكن حرف الراء حرف مفتوح وهذا أيضاً يتناسب مع المعنى»[34].

والعتي يقال: «للشيخ إذا وَلَّى و كَبِرَ عَتَا يَعْتُو عُتِيًّا و عَسَا يَعْسُو عُسِيًّا مثله»[35]. والأصل عتوّا لأنه من ذوات الواو فأبدل من الواو ياء لأنها أختها، وهي أخفّ منها والآيات على الياء، ومن قرأ عِتِيًّا كره الضمة مع الكسرة والياء[36]. وهناك خلاف بين المعربين في دورها في الآية والأكثر على أنها مفعول به لـ(بلغت) وهذا كلام أحدهم «عتيا مفعول بلغت ولا تلتفت الى الأعاريب التي تكلفها المعربون كاعرابها حالا وتمييزا ومن زائدة وهذا لا يليق بكتاب الله»[37].

فإذا نظرنا على هذه الألفاظ المستخدمة من قبل زكرياء (عليه السلام) حين بشّرته الملائكة على ولد له، يمكننا أن نرى من هذه الصورة التي يرسمها لنا القرآن ذلك التعجب والدهشة التي فوجئ بها زكرياء (عليه السلام) حين سمع تلك البشارة، فاستخدم (أنّى) الاستفهامية حيث كان بإمكانه أن يستفيد من (كيف) و(أين)، فكلمة (أنّى) تبين لنا حالة زكرياء (عليه السلام) المتفاجئة أكثر من غيرها من أدوات الاستفهام، وكذلك لفظة (غلام) حيث تعطينا وتخبرنا عن ذلك البهجة والسرور والأمل الذي قد وافاه زكرياء (عليه السلام) إثر هذا الخبر، وهو يعلم بأن امرأته عاقر لم تلد مع إيمانه بالله وقدرته على كل شيء.

3.3 مفاجئة بشارة الولد إلى مريم (عليها السلام)

جاءت حكاية بشارة الولد إلى مريم (عليها السلام) في ضمن سورتي آل عمران ومريم، حيث ينادي الملائكة مريم (عليها السلام) ويبشرونها بالمسيح عيسى (عليها السلام). فمريم حين تسمع هذه البشارة تتعجب وتدهش من هذا الخبر لأنّها بطبيعة الحال لا تجد عند نفسها الأسباب اللازمة لخلق الولد مثل وجود الزوج. فعلى هذا تفاجئ بهذا الخبر ويجري بينها وبين الملائكة الحوار التالي:

﴿إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسيحُ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبينَ﴾ ﴿وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحينَ﴾ ﴿قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لي وَلَدٌ وَلَمْ

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران، الآيات 45-47)

إنّ حروف هذا الحوار يبلغ عددها 202 حرفاً، الحروف المهموسة يبلغ عددها إلى 50 حرفاً والنسبة المئوية لها تبلغ 24%. والحروف المجهورة يبلغ عددها إلى 152 حرفاً والنسبة المئوية لها تبلغ 75%. أما نسبة استخدام حروف الهمس في كلام الملائكة كانت أكثر منه إلى كلام مريم (عليها السلام). فحين تقول مريم (عليها السلام) ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تستخدم 30 حرفا 4 منها حرف مهموس ونسبتها تبلغ 13% ولكن في نفس الآية حين يتكلم الملائكة ويقولون ﴿كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يستخدمون 48 حرفا 12 منها حرف مهموس ونسبة هذه الحروف تبلغ 25% فعلى هذا الإحصاء نرى كلام مريم (عليها السلام) كلاماً مجهوراً حين فاجأت بخبر بشارة الولد.

فمريم (عليها السلام) حين فاجأت بهذا الخبر لا تشكّ في نفسها وقدرتها على أن تحمل وتلد طفلاً، بل كانت متعجبة من عدم وجود زوج لها حيث تحمل منه، فهي تقول متعجبة لم يمسسني بشر فكيف يمكنني أن ألد طفلاً ذكراً كان أو أنثى. فدلالة الولد في هذه الآية تشمل الذكر والأنثى لأنّ مريم (عليها السلام) لم تكن على علم بجنسية الولد أما الغلام فيطلق على الذكر فقط، خلافاً لزكريا (عليها السلام) حيث كان قد طلب من الله حتى يعطيه ذكراً ليرثه فحين أجاب دعوته تعجب وقال كيف يمكن أن يكون لي غلام؟!

وجاء في روح المعاني في تفسير هذه الآية ما يؤكد على حالة مريم (عليها السلام) وذلك الدهشة والتعجب الذي استولى عليها حين استمعت هذا الكلام ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ جملة حالية محققة لما مر ومقوية له، والمسيس هنا كناية عن الوطء وهذا نفي عام للتزوج وغيره، والبشر يطلق على الواحد والجمع، والتنكير للعموم، والمراد عموم النفي لا نفي العموم[38]. فحين تعترف مريم (عليها السلام) بعدم مسها من جانب بشر ما، وتنفي أيّ نوع من الارتباط بينها وبين نوع البشر وتسمع كلام الملائك وهم يبشرونها بولد فهذا يجعلها في موضع مفاجئة عظيمة حتى تسألهم متعجبة عن كيفية خلق هذا الولد.

فحين تعجب زكرياء ومريم (عليهما السلام) من حادثة غير عادية عندهما وهي ولادة الطفل من امرأة عاقر وامرأة لم تتزوج جاء القرآن في جوابهما بفعلين وهما (يفعل) و(يخلق) ويقول رداً على زكريا ﴿كذلك يفعل الله ما يشاء﴾، ورداً على مريم ﴿كذلك يخلق الله ما يشاء﴾. أما في قصة زكريا (عليه السلام) فكان أمر الولادة أسهل من قصة مريم (عليها السلام)، لأن أمر خلق ولد من أب وأم مهما كانا في سن العقم أسهل من خلق ولد من أمّ دون أب. فعلى هذا يقول أبو حيان ﴿قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾

تقدم الكلام في نظيرها في قصة زكريا، إلّا أن في قصته يَفْعَلُ ما يَشاءُ من حيث إن أمر زكريا داخل في الإمكان العادي الذي يتعارف، وإن قل، وفي قصة مريم: يخلق، لأنه لا يتعارف مثله، وهو وجود ولد من غير والد، فهو إيجاد واختراع من غير سبب عادي، فلذلك جاء بلفظ: يخلق، الدال على هذا المعنى»[39]. فمريم (عليها السلام) حين سمعت كلام الملائكة بشأن الولد دون أن يكون له أب من البشر فاجأت من الخبر في بداية الأمر، لكنها بعد استماع أدلة الملائكة في هذا المقام هدأت نفسها واطمأنت من إرادة ربها فتقبلت أمره بقبولٍ حسنٍ.

4.3 مفاجئة بشارة البنات

اهتم البشر منذ القديم بالقدرة والسلطة ولم يدخروا أي جهد لتحقيق هذه الفكرة، ونتيجة لهذه الفكرة فقد تجنبوا عن أي قضية كانت علامة الضعف في أذهانهم، وبدلاً من ذلك تحوّلوا إلى مصادر القدرة والثروة. كان الناس في المجتمعات القديمة يرجحون الذكور على البنات للأسباب والعوامل المختلفة خاصة المادية والأمنية وهذه الفكرة بقي أثرها في ذهنية بعض الناس في المجتمعات الإنسانية حتى اليوم. نرى هذا الموضوع في القرآن الكريم أيضاً، يقول القرآن الكريم كان الناس في العصور الماضية يبتعدون عن الفتيات لضعفهن يقبلون على الأولاد فقط، لدرجة أنهم ينسبون الفتيات إلى الله تبارك وتعالى ﴿وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ﴾ (النحل، الآية 57). فيخاطبهم الله تبارك وتعالى بأن هذه الفكرة ليست صحيحة وأنتم ظالمون في قولكم هذا ﴿أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى﴾ ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾ (النجم، الآيتان 21- 22). فالخلق كلها لله سبحانه وتعالى، وإنه هو يخلق ما يشاء يعطي من يشاء الذكر ويعطي من يشاء الأنثى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾ (الشورى، الآية 49).

جاءت في القرآن الكريم آيات حول ولادة البنات يستنبط القارئ من سياقها نوعاً من مفاجئة تدرك والديها حين يسمعان خبر ولادة بنتهما. ﴿وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ (النحل، الآيتان 58- 59) فمن آثار المفاجئة هي تغيير لون الوجه، فالشخص الذي يفاجئ بموضوع أو مسألة إثر التغييرات الفسيولوجية في جسمه وروحه يتغير لون وجهه. القرآن الكريم يقول أن الناس في المجتمع الجاهلي إذا كانوا يبشرون بالبنات تسودّ وجوههم وكانوا يختفون من الناس من شدة الخوف والخجل. فأمر الخلق خاص لله (عز وجل) فهو يخلق الذكر والأنثى ولا مجال لأحد أن يداخله في أمره،

ولكن الناس حسب أحاسيسهم وآمالهم واحتياجاتهم كانوا يطلبون الذكور وحين يرون طفلهم الأنثى بدل الذكر كانوا يخيبون في آمالهم ويفاجئون بالخبر.

وامرأة عمران كغيرها من أبناء البشر في ذلك المجتمع كانت ترجح الولد على البنت فطلب من الله تبارك وتعالى الذكر وحين رأت أن طفلته كانت بنتاً تعجبت وقالت متحسرة رب إني وضعت ما في بطني أنثى وأنا طلبت منك ذكراً. ﴿إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران، الآيتان 35- 36). وأمّا النذر بمعنى التعهّد والالتزام على عمل[40]. وفي تقديم (لك) عناية لشأن المولى تبارك وتعالى، وقالت ﴿ما في بَطْني﴾ لأنه في ذلك الوقت لم يكن من ذوات العقول، فتقول هذه المرأة يا ربّ أنت تسمع كلامي وتعلم ما أطلبه منك، فاستجب دعائي واجعل هذا المولود ذكراً فأنا نذرت أن أجعله خادماً لبيتك، وأسلوب بيان هذه المرأة أسلوب الأذكياء حيث تكني في كلامها ولا تباشر بطلبها فتقول إني جعلت ما في بطني محرراً فأطلب الولد منك، ولكن إرادة الله تبارك وتعالى فوق كل شيء ولا يمكن لأحد أن يغيّر إرادته ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس، 82). فحاصل أمر هو مفاجئة هذه المرأة في بداية الأمر، حيث كانت تفكر بالذكر فأعطاه الله تبارك وتعالى الأنثى ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم﴾ (البقرة، 216). لكنها رضت بقضاء ربها واستسلمت أمام أمره فطلبت منه أن يحفظها وأولادها من الشيطان الرجيم.

نتائج البحث:

بعد تحليل الحوارات التي دارت بين الملائكة والأنبياء؛ إبراهيم، وزكرياء، ومريم (عليهم السلام) في شأن الولد الذي يبشرهم الملائكة به، ومفاجئة الأنبياء بهذا الخبر وصلنا إلى أنّ:

_ تفاجأ الأنبياء (عليهم السلام) بسماع كلام الملائكة في الآيات التي درسناها، لأنهم اعتبروا أنفسهم غير قادرين على الإنجاب في تلك الحالة بسبب سنهم الكبير أو عدم وجود زوج لهم في ذلك الحين كما في قصة مريم (عليها السلام). فطلبوا من الله (عز وجل) أن يحضر لهم آية، وسألوا عن كيفية حصول الولد بأدوات استفهام تختلف من نبي إلى آخر على حسب درجة ظنهم بعدم إنجاب الولد. فالذي يرى حصول الولد بعيداً من نفسه يأتي باستفهام بحرف (أ) والحروف المجهورة والمهموسة على طبيعة الكلام العادي، والذي يراه أبعد يأتي باستفهام بـ (أنّى) ويستخدم الحروف الجهرية في كلامه أكثر لبيان شدة مباغتته. فظهر من الدراسة أنّ هناك استعمال دقيق في استخدام الكلمات والتراكيب لإثارة أحاسيس ومشاعر المخاطب ليرافق مع المتكلم ويلبّي حاجاته.

_ أنّ الأنبياء، مع أنهم يؤمنون بقدرة الله، لكنهم بما أنهم كانوا من جنس البشر ينظرون إلى الأمور بالعيون الأنسانية والطبيعية، إلا أن يكون هناك معجزة تفوق على الأسباب والعلل العادية. فهم كغيرهم من أبناء البشر إذا واجهوا بأمور غير طبيعية يفاجئون من حدوثها ويدهشون. ولكنهم يتمايزون عن بقية البشر في قدرة إيمانهم البالغة بالله تبارك تعالى وتصديقهم إياه. فكلما كان شدة الأفعال والأقوال التي تؤدي إلى مفاجئتم أكثر، كانوا يفاجئون أكثر، فلهذا السبب نرى شدة مفاجئة مريم (عليها السلام) حين سمعت بوجود ولد لها دون وجود والد كانت أكثر من شدة مفاجئة إبراهيم (عليه السلام).

_ في ختام هذه المحاورات بين الملائكة والأنبياء، نرى أن الأنبياء (عليهم السلام) بالرغم من مفاجئتهم في بداية سماع أخبار الملائكة والسؤالات التي تدور في أذهانهم حول كيفية إنجابهم، لكنهم حين تيقنوا وزال عنهم الخوف والدهشة أقبلوا إلى أمر ربهم وتقبلوه بقبول حسن.

الهوامش

(1). محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس، 1414ق، ص 210.
(2). محمود نجيب حسني ، شرح قانون العقوبات، 2018م، ص 137.
(3). أحمد فيومي، المصباح المنير، 1414ق، ص50.
(4). حسين يوسف موسى، الإفصاح في فقه اللغة، 1410ق، ج2، ص 1301.
(5). الشريف الجرجاني، التعريفات، 1985م، ص 46.
(6). محمد طاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1984م، ج4، ص78.
(7). حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، 1360ش، ج1، ص276.
(8). محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 1407ق،ج2، ص 581.
(9). فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 1420ق، ج19، ص 152.
(10). محمد حسين الطباطبايي، الميزان، 1417ق، ج12، ص182.
(11). حسين بن محمد الراغب، المفردات، 1412ق، ص 768.
(12). إسماعيل حقي، تفسير روح البيان، لا.ت، ج 4، ص475.
(13). محمد طاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1420ق، ج 11، ص 298.
(14). إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، لا.ت، ص 23.
(15). أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، 1993م، ص 63.
(16). مهدي علام، النقد والبلاغة، د.ت، ص 58.
(17). أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، 2005م، ص 126.
(18). الكميت بن زيد، الهاشميات، 1986م، ص 100.

(19). ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، 1414ق: ج 15، ص 438.
(20). فاضل السامرائي، معاني النحو، 1991م، ج 4، ص 459.
(21). عباس حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها، 1998م، ص 95.
(22). المصدر نفسه، ص 95.
(23). المصدر نفسه، ص 160.
(24). المصدر نفسه، ص 97.
(25). الزمخشري، محمود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 1407ق، ج 1ص361.
(26). سيد محمود آلوسي، روح المعاني، 1415ق، ج 2، ص 144.
(27). محمد طاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1420ق، ج 3، ص 94.
(28). أحمد فيومي، المصباح المنير، 1414ق، ص 453.
(29). محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، 1414ق، ج 12، ص 441.
(30). المصدر نفسه، ص441.
(31). حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، 1360ش، ج 3، ص95.
(32). المصدر نفسه، ج 8، ص 195.
(33). المصدر نفسه، ج 8، ص 200.
(34). أبو المجد مجاهد وعبد الفتاح سامي، إعجاز القرآن في إنجاب الذرية، 2011 م، ص، 158.
(35). قاسم أبوعبيد، الغريب المصنف، 1990م، ج 1، ص 119.
(36). أبو جعفر النحاس، إعراب القرآن، 1421ق، ج 3، ص7.
(37). محي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه، 1415ق، ج 6، ص 71.
(38). سيد محمود آلوسي، روح المعاني، 1415ق، ج 2، ص 158.
(39). أبوحيان الأندلسي، البحر المحيط، 1420ق، ج 3، ص 158.
(40). حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، 1360ش، ج 12، ص 76.

المصادر والمراجع:

الكتب:

القرآن الكريم

_ آلوسي، سيد محمود، (1415ق)، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية.

_ ابن عاشور، محمد طاهر، (1420ق)، التحرير والتنوير، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي.

_ ابن منظور، محمد بن مكرم، (1414ق)، لسان العرب، بيروت، دار الصادر.

_ ابن يعيش، يعيش بن علي، ((لا- ت)، شرح المفصل، بيروت، عالم الكتب.

_ أبو عبيد، قاسم، (1990م)، الغريب المصنف، تونس، المؤسسة الوطنية للترجمة.

_ الأندلسي، أبوحيان، (1420ق)، البحر المحيط، بيروت، دار الفكر.

_ أنيس، إبراهيم، (لا-ت)، الأصوات اللغوية، مصر، مكتبة نهضة مصر.

_ بدوي، أحمد، (2005م)، من بلاغة القرآن، القاهرة، دار النهضة.

_ الجرجاني، الشريف، (1985م)، التعريفات، بيروت، مكتبة لبنان.

_ حسن، عباس، (1998م)، خصائص الحروف العربية ومعانيها، دمشق، منشورات إتحاد الكتاب العرب.

_ حسني، محمود نجيب، (2018م)، شرح قانون العقوبات، الإسكندرية، دار المطبوعات الجامعية.

_ حقي، إسماعيل، (لا-ت)، تفسير روح البيان، بيروت، دار الفكر.

_ درويش، محي الدين، (1415ق)، إعراب القرآن وبيانه، سورية، دار الإرشاد.

_ الرازي، فخرالدين، (1420ق)، مفاتيح الغيب، بيروت، دار الإحياء التراث العربي.

_ الراغب الإصفهاني، حسين بن محمد، (1412ق)، المفردات في غريب القرآن، بيروت، دار العلم.

_ زبيدي، محمد بن محمد، (1414ق)، تاج العروس، بيروت، دار الفكر.

_ الزجاجي، عبد الرحمن، (1984م)، حروف المعاني، بيروت، مؤسسة الرسالة.

_ الزمخشري، محمود، (1407ق)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربي.

_ السامرائي، فاضل، (1991م)، معاني النحو، جامعة بغداد.

_ سيبويه، عمرو بن عثمان، (1975م)، الكتاب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

_ السيوطي، جلال الدين، (1980م)، همع الهوامع، الكويت، دار البحوث العلمية.

_ الطباطبايي، محمد حسين، (1417ق)، الميزان، قم، دفتر انتشارات اسلامي.

_ العكبري، عبد الله، (1998م)، التبيان في اعراب القرآن، رياض، بيت الأفكار الدولية.

_ علام، مهدي، (لا.ت)، النقد والبلاغة، القاهرة، دار الكتاب العربي.

_ فيومي، أحمد، (1414ق)، المصباح المنير، قم، مؤسسة دار الهجرة.

_ الكميت بن زيد الأسدي، (1986م)، الهاشميات، بيروت، دار النهضة العربية.

_ المراغي، أحمد مصطفى، (1993م)، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، بيروت، دار الكتب العلمية.

_ مصطفوي، حسن، (1360ش)، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، تهران، بنكاه ترجمه ونشر كتاب.

_ موسى، حسين يوسف، (1410ق)، الإفصاح في فقه اللغة، قم، مكتب الإعلام الإسلامي.

_ النحاس، أبو جعفر، (1421ق)، إعراب القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية.

_ يعقوب، إميل بديع، (2006م)، موسوعة علوم اللغة العربية، بيروت، دار الكتب العلمية.

المقالات:

_ مجاهد، أبوالمجد؛ سامي، عبد الفتاح، (2011م)، إعجاز القرآن في إنجاب الذرية، بحوث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار الجياد للنشر والتوزيع، صص 147- 160.